

بیمارستان مدينة غرناطة - دراسة تاريخية-

د. شامخ زكريا علاونه*

الملخص:

تناول البحث دراسة مارستان مدينة غرناطة آخر الممالك الإسلامية في الأندلس، وجاء البحث معتمداً على المصادر التاريخية التي تناولت وصفاً مختصراً للبيمارستان، وكذلك تعريف مصطلح البيمارستان وتطوره التاريخي. هذا بالإضافة إلى عرض موجز للبيمارستانات في الدولة الإسلامية ابتداءً من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وانتهاءً بعصر المماليك. وجاء البحث مبيناً على أهمية اختيار موقع مارستان غرناطة، وتسميته، وتاريخ تأسيسه، والتطورات التي حدثت عليه في الوقت الحاضر. كما تم مقارنته ببيمارستان القاهرة، وتطرق البحث للنقش التأسيسي للبيمارستان، والأطباء القائمين عليه، وطرق العلاج والأدوية والمرضى الذين كان يعالجون به. بالإضافة إلى عرض مخطط البيمارستان المعماري ومقارنته مع بعض البيمارستانات الإسلامية في مصر وبلاد المغرب من حيث التخطيط.

الكلمات المفتاحية: الأندلس؛ غرناطة؛ العمارة الإسلامية؛ مارستان، تخطيط؛

مصر؛ بلاد المغرب.

Abstract :

The research study Marstan Granada in the Last Islamic kingdoms in Andalusia, came searching on historical sources that dealt with a brief description of Marstan, as well as the definition of the term Almarstan and its historical development, in addition to a brief statement of Marstanat in the Islamic state, starting from the era of Prophet Muhammad, and the end of the era of the Mamluks , came searching on the importance of selecting site Marstan Granada, and name, date of establishment, and the developments that have taken place so far, as compared marstan Cairo, and extremism search for inscription Constitution of Marstan, doctors charge of it, and methods, medicines and patients who had treat them treatment, in addition to Almarstan scheme architectural and compared with some Islamic Almarstanat in Egypt and the Maghreb in terms of planning and method of work and staff.

* أستاذ مشارك كلية التربية، قسم التاريخ، جامعة القدس المفتوحة. فرع رام الله التعليمي، فلسطين.

Key words: architectural; Islamic Almarstanat; Andalusia; Granada; Egypt; Maghreb.

مقدمة:

يتناول هذا البحث جانباً من العمارة الإسلامية في الأندلس فترة العصور الوسطى، والتي تتمثل في البيمارستان الغرناطي أو الناصري في مدينة غرناطة، حيث كان من أهم منشآتها المعمارية في تلك الفترة التاريخية، حيث جاء بناء البيمارستان الغرناطي أسوة ببقية عواصم حواضر العالم الإسلامي في العراق والشام ومصر وبلاد المغرب.

قسم هذا البحث على عناوين فرعية عالجت نشأة وتطور الطب في الأندلس بالإضافة إلى تسمية بيمارستان غرناطة وموقعه الجغرافي، وتاريخ بناء البيمارستان والتغيرات التي حدثت عليه، كما جاء البحث على النقش التأسيسي للبيمارستان وطراز ونمط كتابته، وأطباء البيمارستان حسب ورودها في المصادر التاريخية، ووصفه المعماري.

يهدف البحث إلى إيجاز نبذة تاريخية للبيمارستانات في الدولة الإسلامية وأنواعها، وبيان تسمية البيمارستان كمصطلح، وكذلك جاء البحث على موقع بيمارستان مدينة غرناطة والتطورات التاريخية التي حدثت عليه الآن. ويتطرق إلى الفترة التاريخية التي تأسس فيها، وإظهار أسباب إغفال المؤرخين عن ذكر الأطباء الذين كانوا يعملون في البيمارستان. كما يهدف البحث إلى دراسة مخطط وعمارة البيمارستان ومقارنته مع بيمارستانات أخرى في المدن الإسلامية.

تكمن أهمية البحث في اعتماده على بعض المصادر الإسبانية التي تناولت تحليل تاريخ إنشاء البيمارستان وأهميته بالنسبة لمدينة غرناطة في المقام الأول، على اعتباره البيمارستان الوحيد في الأندلس، وكذلك تعد هذه الدراسة من الدراسات القليلة التي تناولت موضوع بيمارستان مدينة غرناطة، ومقارنته بالبيمارستانات في العالم الإسلامي من حيث التحليل والوصف المنهجي لما ورد في المصادر التاريخية التي عاصرت تاريخ إنشاء البيمارستان وخاصة تلك الموجودة في بلاد المغرب.

لقد اتبعت المنهج التاريخي الوصفي والتحليلي في موضوع البحث، حيث تم تحديد وحصر المصادر والمراجع التاريخية العربية والاسبانية التي أتت على ذكر البيمارستان، ومن ثم تم تقسيم البحث إلى ثلاثة أقسام رئيسة، ففي الجزء الأول تناول المقدمة وتطور البيمارستانات في الدولة الإسلامية، أما الجزء الثاني فتناول موقع وأهمية وتاريخ وتخطيط البيمارستان، أما في القسم الثالث تم تناول دراسة تحليلية لمواد البناء والزخرفة للبيمارستان.

أولاً: البيمارستانات في الأندلس

شجعت الدولة الناصرية عملية ترجمة المؤلفات العلمية من اللغة اللاتينية إلى اللغة العربية، والتي كان من ضمنها الكتب الطبية التي أسهمت في تطور مهنة الطب في بلاد الأندلس فترة العصور الوسطى، وكان لتطور هذه المهنة تطور في زراعة الأعشاب الطبية التي غالباً ما وجدت في الحدائق الملكية أو قصور السلاطين والأمراء، فقد ارتبطت مهنة الطب بمهنة الصيدلة¹ ولا زالت، حيث اعتمد الأولى على الثانية في تحضير الأدوية من الأعشاب الطبية. وقد نظمت مهنة الطب والصيدلة في الأندلس ضمن قوانين خاصة من قبل الدولة². لقد وضعت شروطاً لممارسة مهنة الطب والصيدلة وهي منع ممارسة الطب أو الجراحة للذين ليست لهم خبرة أو كفاءة في ذلك، وكذلك منع تدريس الطب بغير علم وتجربة في الاختصاص، ومنع الطبيب من اخذ الدم من شخص إلا بأذنه، واقتصار عملية تحضير الأدوية على الأطباء الصيادلة الخبراء³.

كان تدريس الطب قبل تأسيس بيمارستان مدينة غرناطة يتم في المدرسة اليوسفية في هذه المدينة، حيث أشار ابن الخطيب إلى ذلك ولكن دون تفصيل، وهذا يعني أن أسباب بناء مارستان غرناطة إنما جاء تنويعاً للتطور الذي حصل على المملكة فترة السلطان محمد الخامس سلطان مملكة غرناطة وهو أمير المسلمين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر الأنصاري الخزرجي (755 هـ / 1357م)، والتي لم تقتصر على المدينة فحسب بل تم تشييد القلاع والأبراج والتحصينات شمال شرق وغرب مدينة غرناطة⁴.

لم تأت المصادر التاريخية على ذكر وجود مارستان بمدينة قرطبة فهذه المصادر لا تحدد مكان وتاريخ بناء بيمارستان في مدينة قرطبة، ولكن هناك إشارات واضحة على وجود بيمارستان فيها، حيث تم الإستدلال على ذلك من خلال بعض الإشارات التي وردت في ثنايا المصادر التاريخية، حيث نجد بروز أطباء اشتهروا في علم الطب كالطبيب الجراح أبي القاسم خلف الزهراوي الذي أبدع في الجراحة، لذلك فإنه لا يمكن أن يظهر مثل هذا الطبيب ويبدع في علم الطب دون أن يكون هنالك بيمارستان ليعينه على اجراء تجاربه الطبية⁵. ويشير ابن بسام⁶ أن الأمير أبا الحزم بن محمد بن جمهور (422هـ-1031/426-1070م) سلطان قرطبة في فترة ملوك الطوائف⁷، وهو مؤسس دولة بني جمهور بقرطبة كان يزور المرضى ويتفقددهم". وهذا دليل على أن هذا الأمير كان يقوم بالزيارة البيمارستان، اذ لا يعقل وهو أمير قرطبة أن يزور كل مريض في بيته أو في العيادات الخاصة.

لقد سلكت الأندلس ذات التوجه الذي اتبع في حواضر العالم الإسلامي، فوجدت العيادات والمؤسسات الصحية في غالبية المدن الأندلسية ولكنها لم ترق إلى بيمارستانات، ولهذا لم يذكر المؤرخون الأوروبيون إلا مارستاناً في مدينة قرطبة لا أثر له على أرض الواقع⁸.

ثانياً: بيمارستان غرناطة

غالبية المصادر التاريخية لم تذكره بسوى بيمارستان غرناطة⁹، ولم تذكره باسم مؤسسة كما هو الحال في البيمارستان الصلاحي في مدينة القدس أو البيمارستان الناصري نسبة إلى الدولة الناصرية، وإنما عرف باسم مارستان غرناطة وكذلك لم يعرف باسم بيمارستان محمد الخامس سلطان مملكة غرناطة الذي شيد في عهده، ولا نعرف سبب عدم تسميته باسم من قام بإنشائه كبقية البيمارستانات في العالم الإسلامي¹⁰.

1- تاريخ بناء البيمارستان والتغيرات التي حدث عليه

يعود تاريخ بناء البيمارستان إلى عهد السلطان محمد الخامس سلطان مملكة غرناطة ووفق للوحة التأسيسية يعتبر هذا البيمارستان أول مستشفى في الأندلس¹¹ منذ دخول الاسلام إليها. ويتناول ابن الخطيب البيمارستان بذكره: "لم

يهتد إليه غيره من الفتح الأول¹² وهذا ما يؤكد النقش التأسيسي للبيمارستان في السطر 18-19 " فاخترع به حسنة لم يسبق إليها من لدن دخل الإسلام هذه البلاد" إلى موافقته إياي، وتسوغه ما اخترعته، بإذنه. وأجريته بطيب نفسه، من اتخاذ المدرسة والزاوية وتعيين التربة، مغيرا في ذلك كله على مقاصد الملوك، نقشا عليه، بطيب اسمه في المزيد، وتخليد في الجدران للذكر¹³.

بقى بيمارستان غرناطة عامراً حتى سقوط مدينة غرناطة عام 1492م، ولم تسعفنا المصادر التاريخية عن الأحوال التي أل إليها البيمارستان، في أواخر دولة بني نصر سوى أنه كان بيمارستاناً للمجانين، فتبدلت أحواله، عندما سقطت غرناطة عام 1492م¹⁴ وصفه الرحالة الألماني Jeronimo Munzer والذي زار غرناطة بعد ثلاث سنوات من سقوطها بيد الملوك الأسبان بقوة ، لقد أبقى الملك فرناندو على البيمارستان وزاد من التبرعات إليه¹⁵. وبعد فترة حُول مبنى البيمارستان إلى دار لضرب السكة. واستمر البناء كمؤسسة حكومية لغاية منتصف القرن السابع عشر الميلادي، وتم تحويله سنة 1748م كملكية خاصة لدير كنسية المهد في غرناطة، ولكن الدير لم يحتفظ به سوى بضع سنوات وتم بيعه إلى المارشال خوسي "Jose Mrachante" والذي كان القائد العسكري لمدينة غرناطة. وهنا تشكك المصادر الاسبانية بعملية البيع وتفيد أن كونه قائداً عسكرياً فقد سيطر على البناء واعتبره ملكاً خاصاً له وصار مكاناً لإقامته¹⁶.

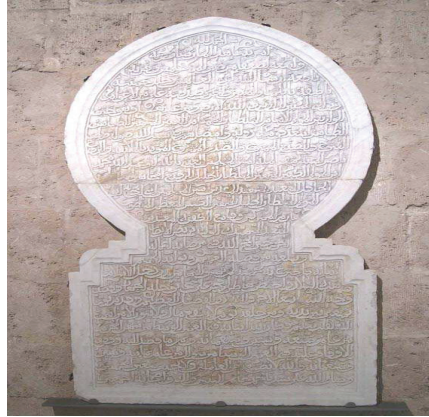
ومع نهاية القرن السابع عشر الميلادي تحول المكان بسبب حالته المعمارية لمنشأة صناعية، وهنا لم تسعفنا المصادر التاريخية بأن هذه المنشأة هي خاصة لقائد غرناطة أم تم تأجيرها من قبله لغيره. ومع نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، انتقلت ملكية البيمارستان لملك مزرعة السيد Jose Lopez وكان ذا علاقة مع مهندس في بلدية غرناطة وهو السيد Don Blater Romero والذي سمح له بإعادة ترميمه وأضافه بعض الأجزاء عليه. وقد استخدم في آخر مائة سنة كبيت للنبيذ (Casa del Vino) وفي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي عاد كملكية عامة لبلدية غرناطة واستخدم كثكنة عسكرية، وفي ثمانينات القرن الماضي

استخدم كسجن، وقد أدرك الأسبان أهمية هذا البناء وقد بدأت عملية ترميم وإعادة البناء إلى عناصره التاريخية عام 2005¹⁷.

2- نقش البيمارستان:

- 1- الحمد لله
- 2- أمر ببناء هذا البيمارستان رحمة
- 3- واسعة لضعفاء مرضى المسلمين، وقربة
- 4- نافعة إن شاء الله لرب العالمين، وولد حسنة
- 5- ناطقة باللسان المبين، وأجرى صدقة على مرّ الأعوام
- 6- وتوالي السنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير
- 7- الوارثين، المولى الإمام السلطان الهمام الكبير الشهير الطاهر
- 8- الظاهر أسعد قومه دولة وأمضاهم في سبيل الله صولة صاحب
- 9- الفتوح والصنع الممنوح، والصدر المشروح، المؤيد بالملائكة والروح
- 10- ناصر السنة، كهف الملة أمير المسلمين الغني بالله أبو عبد الله محمد
- 11- بن المولى الكبير الشهير السلطان الجليل الرفيع المجاهد العادل
- 12- الحافل السعيد الشهير المقدس أمير المسلمين أبي الحجاج ابن
- 13- المولى السلطان الجليل الشهير المعظم المنصور
- 14- هازم المشركين وقامع الكفرة المعتدين
- 15- السعيد الشهيد الوليد بن نصر الأنصاري
- 16- الخزرجي، أنجح الله في مرضاته أعماله
- 17- وبلغه من فضله العميم وثوابه الجسيم
- 18- آماله، فاخترع به حسنة لم يسبق إليها من لدن دخل الإسلام
- 19- هذه البلاد؛ وأختص بها طراز فخر على عاتق حلة الجهاد وقصد
- 20- وجه الله بابتغاء الأجر والله ذو الفضل العظيم، وقدم نورا
- 21- يسعى بين يديه ومن خلفه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى
- 22- الله بقلب سليم¹⁸. فكان ابتداء بنائه في العشر الأوسط من شهر المحرم
- 23- من عام سبع وستين وسبعمائة 767هـ وتم ما قصد إليه ووقف

- 24- الأوقاف¹⁹ عليه في العشر الوسط من شوال من عام ثمانية وستين
 25- وسبعمائة 768 والله لا يضيع أجر العاملين ولا يخيب سعي المحسنين
 26- وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله وأصحابه أجمعين.

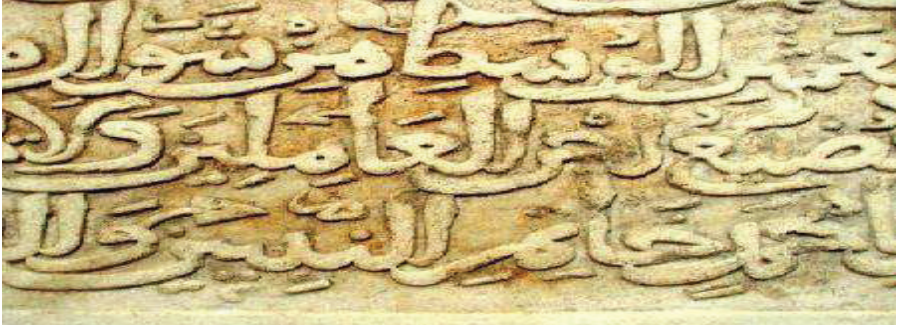


تحليل نص النقش:

بلغ عدد أسطر النقش 26 سطراً، كتبت بالخط النسخي الأندلسي بزخرفة ورقية، ونقش النص بشكل نافر، كلماته غير متباعدة متداخله فيما بينها أحياناً، ولا يوجد رتوش نافرة بين أسطر النقش، وللوحة الحجرية مكسورة في ثلثها العلوي على ما يبدو بسبب نقلها مرات متعددة من مكان إلى آخر، يتخلل النقش حمرة أو لون وردي وهو ليس ناتجاً عن عملية ترميم بل نوعية للوحة الرخامية ليست نقية تماماً باللون الأبيض مما زاد اللوحة جمالاً طبيعياً، لقد كتب الخط العربي بعدة أنماط تم تسميتها بأسماء المدن أو الدول أو الأماكن أو المدارس التي عرفت من خلالها؛ فهناك الخط الكوفي، والخط النسخي، وخط الثلث، والخط الأندلسي، وخط الرقعة والخط الديواني، وخط التعليق أو الفارسي وخط الإجازة، هذا بالإضافة إلى تفرع أيضاً بعض هذه الأنماط إلى عدة أقسام فمثلاً عرف الخط الكوفي المورق والمزهر والمنحصر والمعشق أو الموشح وهكذا بقية الخطوط العربية الأخرى²⁰.

ففي نقش النص التأسيسي موضوع البحث زاد من جمالية النص إعجام وتشكيل وتوريق كافة حروف النص دون استثناء، مما زاد من جمالية اللوحة التأسيسية ومنحها قيمة جمالية وزخرفية ووظيفية في آن واحد، ففي النصوص

التأسيسية التي تم اعجامها وتشكيلها بشكل مطلق خاصة في القصور والمباني العامة تعبر عن رمزية وظيفية أولاً وروحية وجمالية وزخرفية ثانياً²¹.



(نموذج من النص التأسيسي للبيمارستان ويظهر فيه حركات التشكيل والاعجام)
-شكل وقياسات اللوحة الرخامية:

عبارة عن لوحة رخامية ذات لون أبيض يتخللها بعض البقع الوردية، طولها أو ارتفاعها 179.5 م وعرضها 95 سنتيمر، وتتألف من لوحتين الأولى علوية تشبه القوس أو شاهد القبر وأخرى سفلية مستطيلة الشكل، وتحمل رقم 1، ضمن سجل القطع الأثرية في متحف قصر الحمراء²². أما الإطار الخارجي فهو عبارة عن إطار ذات سطح أملس يبلغ عرضه 5سم متدرج من الأعلى إلى الداخل بعمق 1سم وصولاً إلى أرضية نص اللوحة الرخامية.

3: وصف البيمارستان

سنقدم وصفا لمبنى للبيمارستان في ضوء البعثات الأثرية المختلفة التي قامت بالحفر في موقع البيمارستان، ويقدم لنا كل من Vicente Salvatierra وزملائه الآخرين وصفا جيدا لما رستان غرناطة وذكروا أن المخطط هو نمط من أنماط عمارة العصر الاسلامي، والذي بدوره يمكن ربطه مع مخططات ذات أصل روماني والذي يتكون من ساحة وسطى مركزية مع أروقة مفتوحة من جميع الجهات وتطل على الخارج، وهذا النوع من العمارة يعتبر نمطاً رومانياً له وظائف متعددة في العمارة الاسلامية خاصة الفنادق أو الخانات، والمخطط هو مستطيل يبلغ طوله 38:30 متر وعرضه 26:50 متر تقريباً، وهو باتجاه شمال جنوب، ويطل الجانب الجنوبي على نهر درو (Darro) وقسم البيمارستان الى اربعة اقسام تتألف من غرف وصلات

مربعة يتقدمها اروقة، أما الصالات الرئيسة فهي مربعة على الرغم من اختلافها بسبب عدم انتظام الجدران وعدم الدقة في مسار الجدار الذي يتقدم الصالات بعرض 1:27 متر تقريباً²³.

يعد مخطط بناء البيمارستان نموذجاً لمخططات بناء المدارس والفنادق والبيمارستانات، وهذا النوع من التخطيط غير مسبوق في العصر الأموي الغربي، ففي مدينة الزهراء يوجد فناء واسع كبير مع دعائم مربعة وزوايا من كل جانب تشغله صالات كبيرة ثلاثية الممرات تطل على الساحات المتاخمة لها و أنها تفتقر الى الدعائم وهذه القاعات موجودة في قصور الأمويين في الشرق وفي الأربطة والخانات الشرقية²⁴.

أن تخطيط البيمارستان يتطابق مع فترة الدولة الناصرية، وأقرب مثال لدينا هو الفندق المعروف باسم (Corral del Carbón) كما رأينا في ذلك الوقت هو عبارة عن بناء مربع الشكل. ويتكون من اربعة اروقة منتظمة حول صحن سماوي مركزي يتكون من ثلاثة طوابق بينما البيمارستان يتكون من طابقين، والتي يمكن الوصول اليها بواسطة سلالم موجودة في الممرات. ومدخل البيمارستان يقع في جانبه الشمالي مقابل كنيسة (Convento de la Concepción). والمدخل الرئيس يوجد في الجانب المستطيل للبيمارستان، وروعي أثناء بناء مدخل البيمارستان التناظر المعماري، وكثافة الزخرفة التي توجد فيه، بينما لم تزخرف بقية الجدران بشكل كبير²⁵.

أما المعماري Antonio Almagro Cárdenas " وصف بوابة بيت السكة (البيمارستان) " تظهر كما كانت غنية بالزخارف والتصميم الاصيل والانيق، وزخارفه تتكون من جزئين مفصولين بواسطة كورنيش محدد من اليمين والشمال باعمدة ذات تيجان وقواعد من نفس النمط أو الاسلوب بالنمط العربي. كما وأضاف زخرفته أنيقة وتدل على مهارة وبراعة عاليه من المهندس الذي صصمه آنذاك²⁶.

ويصف الباحث Antonio Fernández Puertas بوابة البيمارستان ويقول " تزخرف البوابة كتابة تتكون من الخط الكوفي بزوايا من اصل فارسي مع شعار

مملكة غرناطة لا غالب إلا الله حيث يمكن قراءتها في الوضع الطبيعي والمقلوب والذي جعله مميزاً من خلال طريقة إبراز الأجر المقطوع وقد تم ملء الفراغ بين الأحرف بالخزف ذات اللون الأزرق" ²⁷.

أما النقش التأسيسي فمحاط بشريط من الزليج الأبيض والأزرق، الذي يحيط بالعقد الخارجي للوحة التأسيسية وهي عقود صغيرة مفصصة متقاطعة مزخرفة بأوراق النخيل، ويظهر في مركزها زخرفة على شكل صدفة أو محارة نقشت أعلى عقد اللوحة التأسيسية ²⁸.

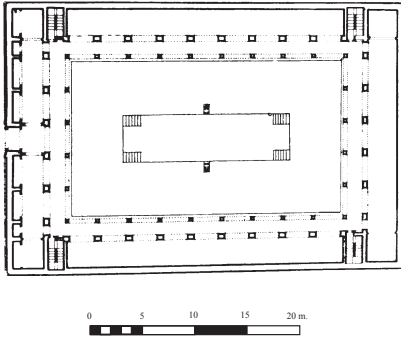
وقد استخدمت المواد الإنشائية في بناء البوابة، فهي ما يعرف بالطوب كما يضيف Rafael Contreras بأن غطاء واجهة المدخل كانت تتكون من الطوب ²⁹ الأملس بأسلوب مئذنة الخيرلدا ³⁰ وهي مئذنة جامع إشبيلية. هذا بالإضافة إلى رأي Almagro Cárdenas " في وصفه، أن بناء بوابة بيمارستان غرناطة كان آخر أعمال محمد الخامس، والذي كان بمثابة نموذجاً مثالياً للفن العربي الذي أنتج في غرناطة ³¹.

ويتوسط صحن المدرسة السماوي بركة ماء أو نافورة يبلغ طولها يبلغ 14 متر وعرض 5 متر، شيدت من الطابية والتي تتكون من الكلس والرمل والحصى الصغير جداً، ورصفت وغطيت أرضية البركة بخرسانه صلبة من الأعلى ومن الأسفل ببلاطات كبيرة من الطين وضعت في صفوف عرضية وبالتناوب واحدة مربعة وأخرى مستطيلة. وبسبب التغيرات التي حدثت على بناء البيمارستان الأصيل من الصعب جداً تحديد ما إذا كان هناك حديقة في ساحة البيمارستان أو أرضية مرصوفة والتي هي كانت موجودة على الأرجح ³².

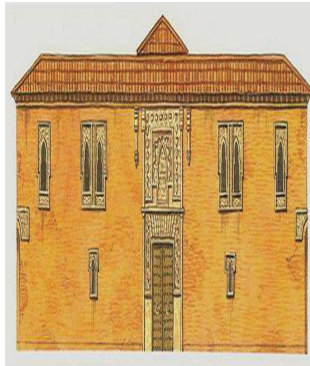
أما التخطيط الداخلي للبيمارستان فقد كان بشكل عام بناء مع صحن سماوي مستطيل الشكل، وفي وسطه كان يوجد بركة أيضاً مستطيلة الشكل تفصل جوانب الساحة نحو 5 متر، في نهايات الساحة كان يوجد بعض السلالم التي سمحت النزول إلى داخل الساحة على ارتفاع حوالي 1,5 متر. حيث يوجد اسدين تتدفق المياه منهما إلى البركة من الجانبين الرئيسيين على نمط الأسود في قصر الحمراء في غرناطة ³³.

أما فيما يتعلق بالأسود التي كانت ترمز للقوة والجمالية والوظيفية، فهي في حالة جلوس واستعداد كما في نحت أبو الهول في مصر، وكذلك تتشابه مع أسود نافورة قصر الحمراء، فقد نحتت من قبل ذات النحات وتعود إلى فترة عهد حكم أبي عبد الله الغني بالله³⁴.

وفيما يتعلق بعدد الغرف التي توجد في مارستان غرناطة حيث يوجد 26 غرفة في الطابق الاسفل، ومثلها في الطابق العلوي، مساحة كل واحدة منها ستة أمتار مربعة حيث يمكنها استيعاب شخصين على الأقل³⁵.



وضع مخطط اليمارستان حسب تورس بلبس مع الصورة الحالية



*مدخل اليمارستان الخارجي * صورة الواجهة الخاجية لليمارستان.

ثالثاً: أطباء اليمارستان الغرناطي

أما فيما يتعلق بالأطباء الذين كانوا يعملون في مارستان غرناطة، لم تسعفنا المصادر التاريخية بهذا الجانب، قد يعود تغييب ذكر الأطباء والعاملين بالمارستان

إلى طبيعة هذه المرحلة التاريخية التي شهدت في أواخر الفترة الناصرية الصراع السياسي، والذي أخذ حصة الكتابة التاريخية دون سواها.

وحسب ابن الخطيب³⁶ قبل بناء البيمارستان كان طلاب غرناطة يحصلون على المعرفة الطبية في المدرسة الناصرية أو اليوسفية³⁷. ولا يوجد لدينا أخبار ما إذا كان هؤلاء الطلاب تابعوا دراستهم في المدرسة أو انتقلوا إلى البيمارستان لمواصلة دراستهم، لماذا ابن الخطيب لم يذكر في أعماله أطباء البيمارستان؟ هناك العديد من الأسباب فمنها: أولاً أن أعمال ابن الخطيب لم تصل لنا جميعها كاملة بما في ذلك كتاب الاحاطة، كل الاطباء الذين ظهروا في أعمال ابن الخطيب توفوا قبل أن يبني البيمارستان، وبعد بنائه ذكر في كتاب الاحاطة وصف ومميزات البيمارستان و لكنه لم يتناول أسماء الأطباء وتفاصيل البناء كأقسام المستشفى على غرار المستشفى في مصر.

في الحقيقة ابن الخطيب هو الشخصية الوحيدة التي لدينا اشارة أكيدة بأنه كان طبيباً في مارستان غرناطة في أواخر فترة اقامته في غرناطة قبل هروبه ونفيه إلى المغرب، وعرفنا ذلك من خلال رسالة صديقه ابن خاتمة (ت 770هـ) التي ارسلها الى ابن الخطيب في فترة تعب وارهاق ابن الخطيب والمؤامرات السياسية التي كانت تحاك حوله؛ اذ تحدث فيها عن صفات ابن الخطيب ودعمه في ظروفه الصعبة وهذا نص الرسالة " وإلى هذا يا سيدي، ومحل تعظيمي إجلالي، أدعو الله تعالى صاحب الوجود بطول بقائكم، وضاعف في العز درجات ارتقائكم، فإنه من الأمر لم يغب عن رأي المقول، ولا اختلف فيه أرباب المحسوس والمعقول، أنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها، وتاج مفرقها، وواسطة سلكها، وطرارز ملكها، وقلادة نحرها، وفريدة دهرها، وعقد جيدها المنصوص، وكمال زينتها على المعلوم والخصوص، ثم انتم مدار أفلاكها، وسر أملاكها، وترجمان بيانها، ولسان إحسانها، وطبيب مارستانها، والذي عليه عقد إدارتها، وبه قوام إمارتها³⁸.

ومن خلال الاشارة السابقة نستطيع أن نفند رأي بعض الكتاب الذين يفسرون غياب التفاصيل المتعلقة بالبيمارستان والأطباء لكونه كان مستشفى مخصصاً لعلاج مرضى المدينة المجانين، وان كان صحيحاً فهذا ابن الخطيب يورد

اسمه مقرونا بالبيمارستان، فذكر أن الأطباء كانوا يخشون ذكر اسمهم بمارستان للمجانين غير منطقي. والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا لا يخبرنا ابن الخطيب عن زملائه الأطباء الذين عملوا في البيمارستان، فالاجابة بسيطة، فعلاقاته مع السلطان والدولة لم تكن جيدة وقد خرج لاجئاً من غرناطة الى المغرب بسبب الصراع السياسي.

نأتي على ذكر أطباء معاصرين له في أعماله، فمنهم حمد بن قاسم بن أبي بكر القرشي المالقي المتوفي سنة 757هـ / 1356م من أهل مالقة، وسكن غرناطة وتردد إليها، توجه إلى العدو وارتسم بها طبيبا، وتولى النظر على البيمارستان بفاس في ربيع الثاني من عام 754هـ / 1353م،³⁹ محمد بن فتوح بن شقرال اللخمي ت 765هـ / 1364م شرقي الاصل من سكان غرناطة كان يُحكم عمل التراكيب الطبية وتوفي عام 730هـ / 1339م⁴⁰ محمد بن محمد بن محمد بن بيبش العبدي من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد الله ويعرف بيبش كان مشاركا في الطب وتوفي 753هـ / 1352م⁴¹ حمد بن أحمد الرقوطي المرسي كان عالما في العديد من العلوم وبين هذه العلوم الطب. وفي عهد ثاني ملوك بني نصر استقدمه، وتلمذ له، واسكنه في أحد البقع من حضرته وكان الطلبة يغشون منزله المعروف له ، فتعلم عليه الطب والتعاليم وغيرها⁴².

محمد بن ابراهيم بم محمد الأوسي من أهل مرسية نزل غرناطة كان عالما في الطب توفي عن سن عالية سنة 725هـ / 1343م⁴³. محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن احمد بن محمد ابن يوسف بن روبيل الأنصاري، من أهل غرناطة، طبيب الدار السلطانية سجن ونفي الى العدو ثم عاد إلى وطنه وتوفي 730هـ / 1383م⁴⁴. محمد بن محمد بن علي بن سودة المري، تصدر العلاج، وقرأ الطب على الحبر طبيب الدار السلطانية، ورحل الى العدو⁴⁵ محمد بن عبد العزيز بن سالم بن خلف القيسي، طبيب الدار السلطانية، كان ذاكرة لصناعة الطب، توفي عام 717هـ / 1353م⁴⁶. عيسى بن محمد بن عيسى بن عمر بن سعادة الأموي: طبيب بالدار السلطانية، وتوفي 728هـ / 1381م⁴⁷ غالب بن علي بن محمد اللخمي الشقوري، تعلم الطب بالبيمارستان في القاهرة المعزية وحذق العلاج على طريقة المشاركة، توفي بسببته

عام 741هـ/ 1359م⁴⁸ يحيى بن احمد بن هذيل الحبيبي، كان عالماً، خدم أخيراً باب السلطان بصناعة الطب، وقعد بالمدرسة بغرناطة يقرأ الأصول والفرائض والطب⁴⁹. الملاحظ أن جميع الأطباء الذين ذكرهم ابن الخطيب في كتاب الاحاطة يسبقون وقت بناء البيمارستان، حيث ترك هذا المؤلف الكتابة في غرناطة بعد الانتهاء من بناء البيمارستان بفترة قليلة، وانه غادر غرناطة كما ذكرنا لأسباب سياسية قد يكون هذا تفسيراً لعدم وجود أخبار حول اطباء عملوا في مارستان غرناطة. ومن الممكن أيضاً أنه كتب ذلك في جزء آخر من الاحاطة لم يصل، أما بالنسبة الى أعمال كُتاب آخرين ليسوا من غرناطة مثل ابن خلدون والمقري فربما انهم اعتمدوا على اعمال ابن الخطيب ونسخوا المعلومات التي وصلت اليهم كمرجع وحيد.

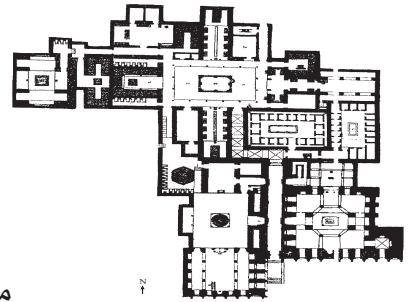
رابعاً: مقارنة مارستان غرناطة مع البيمارستانات الأخرى في العالم الاسلامي

أتاحت لنا المصادر التاريخية تكوين فكرة حول تخطيط مارستان غرناطة. وأول هذه المصادر هو ما قدمه لنا ابن الخطيب من وصف تفصيلي لحالة البيمارستان حيث يقول: "ومن موافق الصدقة والإحسان من خارق جهاد النفس بناء البيمارستان الأعظم، حسنة هذه التخوم القصوى، ومزية المدينة الفضلى، لم يهتد إليه غيره من الفتح الأول مع تقرير الضرورة وظهور الحاجة، فأغرى به همة الدين، ونفس التقوى فأبرزه موقف الأحداق ورحلة الأندلس، وفذلكة الحسنات، فخامة بيت وتعدد مساكن، ورحب ساحة، ودرور مياه، وصحة هواء، وتعدد خزائن ومتوضات، وانطلاق جرایة وحسن ترتيب، أبرّ على مارستان مصر بالساحة العريضة والأهوية الطيبة. وتدفق المياه من فورات المرملة وأسود الصخر، وتموج البحر وانسدال الأشجار⁵⁰.

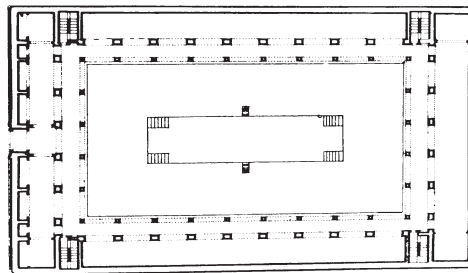
أكد لنا ابن الخطيب ان بيمارستان غرناطة افضل من مارستان مصر ولكن هذا الوصف تم دون زيارة له، مع أن مارستان مصر أكثر تنظيماً وجمالاً، حيث عرف بالبيمارستان المنصوري والذي زادت شهرته على مستوى العالم الاسلامي باعتباره واحداً من أهم الأعمال اتقاناً، وبدون شك ان ابن الخطيب يبالغ في ذلك متأثراً بحبه الكبير لمدينته غرناطة، ويمجد بيمارستانها كعاشق للأشياء في أرضه، ويقارنها

بالأبنية الأكثر شهرة في عصره، ومن الجدير ذكره أن بيمارستان مصر استمر في العمل حتى مطلع القرن العشرين لعلاج العيون، في حين بيمارستان غرناطة كانت فترة عمله قصيرة.

يعد بيمارستان مصر مؤسسةً صحيةً واجتماعيةً ضخمةً، مقسّمًا إلى قسمين كبيرين؛ أحدهما للذكور، والآخر للإناث، وكل قسم منهما مقسّم بدوره إلى قاعات: قاعة للأمراض الباطنية، وقاعة للجراحة، وقاعة للكحالة أمراض (العيون)، وقاعة للتجبير (العظام)، وكانت قاعة الأمراض الباطنية مقسمة بدورها إلى أقسام فرعية، قسم للمحمومين (المصابون بالحمى)، وقسم للمحرورين (وهم مرضى الجنون)، وقسم للمبرودين (المتخومين)، وقسم لمن به إسهال، ولكل قسم رئيس وعدد من الأطباء المتخصصين، كما خصص لكل مريض فرش كامل مستقل من الأسرة والمخدات واللحف والملاءات، بالإضافة إلى الأطباء القائمين على علاج المرضى، كما وجدت صيدلية ضخمة لتكوين الأدوية وتجهيزها، هذا فضلًا عن عدد كبير من الفراشين لخدمة المرضى وغسل ثيابهم، كما زود بمطبخ كبير لإعداد الطعام اللازم للمرضى⁵¹.



مخطط مارستان القاهرة



0 5 10 15 20 m.

مخطط مارستان غرناطة

بالنظر إلى مخطط بیمارستان فهو محدود الاتساع من الجانب الغربي ومتصل مع الحمامات العربية المعروفة اليوم باسم البانويلو (el Bañuelo)، وبناء هذه الحمامات أقدم من بناء بیمارستان في المدينة، وربما استخدمت في علاج بعض الأمراض، ويبدو أنها كانت لخدمة مستشفى الأمراض العصبية كما يذكر المؤرخ Miguel Guirao Gea كما ويتصل بیمارستان بالحمام بواسطة ممر مخفي تحت الأرض، وقد استخدمت المياه المعدنية أو الكبريتية على نطاق واسع في غرناطة في العصر الإسلامي خاصة المياه الحارة من الحمة (Alhama) وزخار (Zújar) وهي مثال للعلاج في الأندلس، ولا زالت تلك الينابيع تحمل لغاية هذا اليوم اسم الحمة مثل الحمة في مرسية والحمة في المرية والحمة في ارغون⁵².

الخاتمة:

لعل فترة الرخاء والهدوء والمعاهدات بين ملك مملكة غرناطة محمد الخامس وملك مملكة قشتالة وأرجون جعلت الدولة الناصرية تقوم ببناء المدارس والبیمارستانات والحمامات والمساجد والقصور والقلاع في الأندلس على نطاق، وتبين من خلال البحث أن مارستان غرناطة لم يكن الوحيد في الأندلس، ولكن تم التعرف على وجود بیمارستان آخر في قرطبة عاصمة الخلافة الأموية. لم تأت المصادر التاريخية على ذكر الأطباء والصيادلة أو حتى الطلاب والمواد التي كانت تدرس والكتب التي ترجمت عن اليونانية وغيرها، حتى أن مخطوطاً واحداً لم يعثر عليه يخص بیمارستان مدينة غرناطة، أما فيما يخص النقش التأسيسي للبیمارستان والذي جاء على شكل شاهد قبر ولم يأت على شكل لوحة تأسيسية كبقية المنشآت المعمارية أو القصور أو البوابات، ولم يجد الباحثين تفسير لماذا جاءت اللوحة التأسيسية على هذا الشكل على الرغم من البحث حول هذا الموضوع. لقد أهمل الأسباب ببیمارستان غرناطة وهدموه وتم تحويله إلى منشأة لضرب السكة أو النقود، ومن ثم انتقل من ملكية عامة إلى خاصة إلى القائد العسكري لمنطقة غرناطة بعيد سقوط غرناطة، ومن ثم إلى عامة إلى بلدية غرناطة ولكن كان قد هدم وحول أكثر من مرة وشغل وظائف غير التي أنشأ من أجلها.

الهوامش:

1. الخطابي، محمد العرب (1988)، الطب والأطباء في الأندلس، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1988، ص11.
2. ابن الأبار: أبو عبد الله محمد بن أبي القضاة (1995)، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر، (بيروت: 1995)، ج4، ص151.
3. نور الدين: زرهوني (2006)، الطب والخدمات الطبية في الأندلس خلال القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي، مؤسسة شباب الجامعة، (الاسكندرية 2006م)، ص47.
4. ALAWNEH, Z.M. Shamekh (2003) Las Tecnicas Constructivas de lo castillos del Norte de Granada, Tesis Doctoral, Universidad de Granda, p,24.
5. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت 733 هـ 1345) (2004): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج17، تحقيق: مفيد قميحة، بيروت، دار الكتب، ص191.
6. البابا، مؤمن أنيس عبد الله (2009): البيمارستانات الإسلامية حتى نهاية العهد العباسي، الجامعة الإسلامية، رسالة ماجستير، ص15.
7. ابن الخطيب، ابن الخطيب للمحة البدرية في تاريخ الدولة الناصرية، ص23.
8. السامرائي، كمال، مختصر تاريخ الطب العربي الجزء الثاني، دارالنضال للطباعة والنشر والتوزيع بغداد 1985، ص191، عيسى بك، أحمد (1939): تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط2، مطبوعات جمعية التمدن الإسلامي بدمشق، ص4.
9. Ibid, pp. 83.
10. ابن الخطيب، لسان الدين (ت 776 هـ / 1374م). (1980): الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط1، 1974، ج2، ص50 المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم (ت 845 هـ 1441): (1987): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزء2، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط2، ص405.
11. ابن الخطيب للمحة البدرية، ص23.
12. ابن الخطيب، الإحاطة، الجزء الثاني، ص50
13. ابن الخطيب، الإحاطة، الجزء الثاني، ص50
14. MARTÍN GARCÍA, M. Y GARCÍA GRANADOS, J. A. “El Maristán de Granada tras el hallazgo de sus restos”. Cuadernos de Arte de la Universidad de Granada. Granada, 1984, vol. 16, p 7-55.
15. Jeronimo, Munzer (1924): Viaje por Espana y Portugal en los anos 1494-1495 Version del Latin por Julio Puyol (Boletin del la Real Academia de la Historia, LXXXIV, Madrid 1924, p,11.
16. Balbas, Leopoldo Torres (1982) Cronica de la Espana Musulmana, 2, Madrid, p416
17. Ibid, p416.
18. الشعراء 89

19. من خلال تتبع المصادر التاريخية لم أقف على أماكن محددة تم وقفها على البيمارستان الناصري في غرناطة
20. لشامي، صالح حمد. الفن الإسلامي التزام وإبداع، دمشق: دار القلم، ط1، 1410 هـ/1990م، ص198.
21. بهنسي، عفيف. جمالية الفن العربي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1979، ص93.
22. M.J.RUBIERA.(2000). Granada,p.172.
23. GARCÍA GRANADOS, J. A., GIRÓN IRUESTE, F. y SALVATIERRA CUENCA, V: El Maristán de Granada..., p. 30.
24. GARCÍA GRANADOS, J. A., GIRÓN IRUESTE, F. y SALVATIERRA CUENCA, V: El Maristán de Granada..., p. 48.
25. MARTÍN GARCÍA, M. y GARCÍA GRANADOS, J. A: «El Maristán de Granada tras el hallazgo de sus restos»..., pp. 17-18.
26. ALMAGRO CÁRDENAS, Antonio: Museo granadino de antigüedades árabes. Granada, 1886, p. 71
27. FERNÁNDEZ PUERTAS, Antonio: «El Arte» en MENÉNDEZ PIDAL: Historia de España, tomo VIII. Madrid, 2000, p. 261.
28. MARTÍN GARCÍA, M. y GARCÍA GRANADOS, J. A.: «El Maristán de Granada tras el hallazgo de sus restos...», p. 20.
29. المقصود بالطوب الأملس المشوي بالفرن وحتى يعطي سمة جمالية للبناء
30. GARCÍA GRANADOS, J. A., GIRÓN IRUESTE, F. y SALVATIERRA CUENCA, V: El Maristán de
31. Granada..., p. 37.
32. CONTRERAS, Rafael: Estudio descriptivo de los monumentos árabes de Granada, Sevilla y Córdoba, ó sea la Alhambra, el Alcázar y la Gran Mezquita de Occidente, Madrid, 1878, p. 344
33. ALMAGRO CÁRDENAS, Antonio: Museo granadino ..., p. 75
34. GARCÍA GRANADOS, J. A., GIRÓN IRUESTE, F. y SALVATIERRA CUENCA, V: El Maristán de Granada..., p. 39.
35. ALMAGRO CÁRDENAS, Antonio: Museo granadino ..., p. 74.
36. GARCÍA GRANADOS, J. A., GIRÓN IRUESTE, F. y SALVATIERRA CUENCA, V: El Maristán de Granada..., pp. 49- 50
37. GUIRAO GEA, Miguel: La medicina en Granada desde su reconquista hasta nuestros días. Centros hospitalarios y facultades de medicina, Granada, 1976, p. 36
38. ابن الخطيب، الإحاطة ، ص515
39. نفسه، ص515
40. SECO DE LUCENA PAREDES, L. (1975): La Granada nazarí del siglo Xv,p65

41. ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج 1 ، ص 253
42. نفسه، ج 2، ص 515
43. نفسه، ج 3، ص 25-23
44. نفسه، ص 31-27
45. نفسه، ص 68-67
46. نفسه، ص 70-69
47. نفسه، ص 162-160
48. نفسه، ص 169
49. نفسه، ص 172-171
50. نفسه، ص 236-235
51. نفسه، ص 240
52. M.J.RUBIERA.(2000). Granada,p.172.